وزارة التعليم العالي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب

الفلسفة

والعلوم الانسانية والطبيعية

بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس
المنعقد في 22ـ2011/11/23م

المجلد الاول

العنوان : الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية

إسم المؤلف : مؤتمر فلسفي / مجموعة باحثين

الناشر : دار الفراهيدي

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

الإخراج الفني : علي محسن

دار الفراهيدي للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد – العراق

نشر هذا العمل على نفقة :

الجامعة المستنصرية - كلية الآداب – قسم الفلسفة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية

٢٦٦٦ لسنة ٢٠١٢

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب

الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية

بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس
المنعقد في ٢٢-٢٣/١١/٢٠١١

المجلد الأول

بحوث مؤتمر العراق الفلسفي الخامس

المجلد الأول

البحث	الباحث	الصفحات
محاضرة الافتتاح • اختزال الدين في الأيديولوجيا- لاهوت التحرير عند (علي شريعتي) و(حسن حنفي)	الدكتور جبار الرفاعي	٩-٢٨
الجلسة الأولى دراسات في الفلسفة الإسلامية والفكر العربي المعاصر	رئيس الجلسة : أ.د حسن مجيد العبيدي مقرر الجلسة:م.د قاسم جمعة راشد	٢٩-١٧٦
١- الخطيب الغرناطي بين علم العمران ومحنة العرفان........................	أ.د. علي حسين الجابري	٣١- ٧٨
٢- نقد مشروع النهضة – قراءة في كتابات الطهطاوي........................	أ.م.د. علي عبد الهادي	٧٩- ١٠٨
٣- المجتمع الفاضل عند ابن خلدون............	أ.م.د. حسن حمود الطائي م . م . شيماء طه	١٠٩-١٣٢
٤- مفهوم اللذّة والألم عند إخوان الصفاء	د. مهدي طه مكي	١٣٣- ١٥٨
٥- مجتمع الكوفة في القرنين الأول والثاني الهجريين	م.د. منذر جلوب يونس	١٥٩- ١٧٦
الجلسة الثانية الفيلسوف الغزالي/الذكرى الألفية لوفاته (١١١١. ٢٠١١م)	رئيس الجلسة :أ.د علي حسين الجابري مقرر الجلسة : م.د رحيم محمد سالم	١٧٧- ٢٩٠
١- الأبعاد الفلسفية للحب عند الغزالي..........	أ.م.د. محمد محمود الكبيسي	١٧٩- ١٩٦

٢- الوجود عند الغزالي وأثره في فلاسفة الغرب ..	أ.م.د. ياسين حسين الويسي	١٩٧-٢١٦
٣- كتابا توحيد المفضل للإمام الصادق والحكمة في مخلوقات الله للغزالي / دراسة مقارنة	أ.م.د. رائد جبار كاظم	٢١٧- ٢٣٠
٤- تكامل المعرفة والوعي النقدي – دراسة تحليلية نقدية في آراء الغزالي الفلسفية	م.د. سامي محمود إبراهيم	٢٣١- ٢٥٦
٥- الملامح الفكرية والفلسفية عند الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال	م.د. رائد أمير عبد الله م.د. خالد عبد الجبار شيت	٢٥٧- ٢٩٠

الملامح الفكرية والفلسفية عند الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال

د. رائد أمير عبد الله الراشد
الموصل – كلية الآداب

د. خالد عبد الجبار شيت الراشد
الموصل/التعليم الاسلامي

المقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

يشكل الإمام الغزالي ظاهرة متميزة في تاريخ الفكر الإسلامي بما يحمله من معان فكرية وفلسفية وإنسانية شكلت بمجملها انعطافا في تاريخ الفكر ليس الإسلامي فحسب بل الإنساني معا، لما قدمه للعالم من إنتاج علمي ثر لا يكاد يخلو أي فرع من فروع المعرفة ، وليس بالغريب أن يسمى بحجة الإسلام حجة للمسلمين وحجة على غيرهم...

ومن هنا لم يكن اختيار أحد كتب هذا العلامة من المهمات السهلة ، فقد تجاوزت مؤلفات الغزالي العشرات ، وارتأينا أن نختار كتاب "المنقذ من الضلال" للبحث والدراسة ، لما يمثله من وثيقة تسجيلية للإرهاصات التي تدافعته وتجاذبته خلال سنين حياته ، فجاءت بصيغة فلسفية نسجت فكره من ناحية التحليل والتركيب ، والخروج باستنتاجات... فضلا عن المعاني العمومية التي تشير إليها هذه الأفكار، وسعة تناولها للموضوع الذي نبحث فيه.

يهدف البحث إلى بيان فكر الإمام الغزالي من خلال كتابه: "**المنقذ من الضلال**" وصولا إلى وضع محددات فكرية استوقفت حياة الغزالي فتأثر بها .

البحث يقع في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تناول لمحة سريعة عن عصر الغزالي الذي كان له تأثير على فكره ، مع تقديم نبذة لكتابه "**المنقذ من الضلال**".

المبحث الثاني: تناول الملامح الفكرية والفلسفية في فكر الغزالي من خلال كتابه: "المنقذ من الضلال".

المبحث الثالث: تناول موقف الغزالي من الفرق التي عاصرها .

ومن الله التوفيق..........

المبحث الأول: عصر الغزالي

أولا: أثر العصر على فكر الغزالي.

كان للعصر تأثيره الكبير في تكوين فكر الإمام الغزالي، لان للبيئة تأثير كبير على سيرة أي إنسان مهما كان، وأن كل فيلسوف ومفكر هو ابن عصره، وأن ما ينتجه من آثار تمثل مرآة حقيقية عاكسة وذاكرة حافظة للأحداث التي وجدت في زمانه، ويعبّر عصر الغزالي عن غاية ما وصل إليه الفكر العربي الإسلامي من تطوّر ونضج، وما بلغه من معرفة بالتّراث اليوناني ترجمة ودرسا وتأليفا، كما أنّ عصره شهد أقصى درجات الأزمة وأكثر لحظاتها اشتعالا بسبب احتدام الصّراع بين أشدّ النّظم الفكريّة والأنساق المعرفيّة تباعدا وتناقضا، فقد تجلّى ذلك كلّه في بروز الفلاسفة والمعتزلة وغيرها من الحركات والمذاهب الدينية والفلسفية، لا باعتبارها تيّارات سياسيّة واتّجاهات مذهبيّة فحسب ، بل باعتبارها نسقا معرفيّا وبناء إيديولوجيّا تامّ التّكوين واضح المعالم ، ثمّ في بلوغ الأشعريّة درجة عالية من الاكتمال المذهبي والصّياغة النّسقيّة في القرن الخامس الهجري، وقد انخرط أبو حامد الغزالي في هذا الصّراع، وكان فاعلا في إذكاء الجدل وتوضيح الرؤى بكتاباته الغزيرة من ناحية، وبسعيه لإنضاج الفكر الأشعريّ في مجالات الكلام والفقه والأخلاق والسياسة من ناحية أخرى، ولهذه الأسباب كلّها انفردت مصنّفات أبي حامد بسمتها الدّقيقة وطابعها القويّ المتميز، وبالتالي فان اجتماع عوامل متعدّدة مختلفة في حياة الغزالي، وطبيعة المرحلة التّاريخيّة الفكريّة التي نشأ فيها الغزالي انعكست على فكره ومصنفاته وما أنتجه من إنتاج غزير في مختلف مناحي الحياة الفكريّة والسياسيّة والرّوحيّة في الإسلام.

ولعلّ أبرز الأحداث التي شهدها الإمام الغزالي هي:

١. قيام الدولة السلجوقية في بغداد على أنقاض الدولة البويهية .

٢. تأسيس المدارس النظامية على يد ألب أرسلان حفيد طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية.

٣. تنامي الصراع بين الفلاسفة والمدارس الكلامية وغيرها من الفرق الدينية والمذهبية.

لقد عاش الأمام الغزالي في عصر مضطرب مفعم بالمجادلات العقلية، والخلافات الفقهية، والمناظرات الكلامية، والمحاورات الفلسفية والمذهبية والنزاعات الإلحادية، والأهواء السياسية، وظهر في مجتمع كثر فيه الانحلال، وقد تعدى الانحلال إلى كل جوانب الحياة، فتعددت جوانب الغزالي بتعدد الحاجات التي أملتها ظروفه المختلفة عليه ، فهو فقيه، وهو متكلم، وهو فيلسوف، وهو صوفي وتلك جوانب اشتهر بها شهرة لا لبس فيها، واستطاع بذكاء أن يرتدي لكل ظرف حلة ، فظهر في كل مرة بمظهر المتمكن من عرضه لأفكاره وإفادته من أفكار سابقيه(١).

ولا شك إن كل ما مرّ ذكره يعبر عن الحالة التي كانت تعيشها الأمة ومجتمعاتها الإسلامية في تلك المرحلة من حالة الفرقة والوهن والتشتت والهوان ، التي ربما ترجع أسبابه إلى عوامل كثيرة، ربما يعود بعضها إلى الضعف المتواصل للدولة العباسية التي استبد فيها بالنفوذ الحقيقي ملوك وأمراء أشهرهم ملك شاه السلجوقي، وتشتت القوة العسكرية للأمة بسبب الفتن والحروب الداخلية التي كانت تدور رحاها بين هذه الطوائف والمذاهب، وأدى انعدام الأمن إلى تدهور الحياة الاقتصادية وتضاءل الثروات، وتعرض حدود المسلمين في جهة بلاد الشام على سواحل البحر المتوسط لهجومات الحملات الأوربية التي وحدّ البابا فيها كلمة أمرائها ، وحرضهم القيام بحملة ضد المسلمين قصد من ورائها انتزاع الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، وخاصة البيت المقدس ، ثم مهدوا لاحتلالهم هذا بتأسيس إمارتين في الشام الأولى بالرها(٢) (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) ، والثانية في إنطاكية (٣) (٤٩١هـ / ١٠٩٨م)(٤) ؛ فضلا عن ضعف

شعور الانتماء لبعض الأفراد والجماعات للإسلام، ومبادئ الدين الصحيح ،أو ولائهم للقيم الاجتماعية والسياسية والدينية ، أو ربما غياب المرجعية السياسية والدينية الواحدة التي تشرف على إدارة الحياة العلمية والتربوية والثقافية والسياسية وتنظيم الحياة الاجتماعية، وتقدر أن تؤلف بين الاتجاهات الاجتماعية المتباينة والمختلفة على قاعدة عريضة من المشتركات، التي تسهم في تقديم فرصا أكثر لتحقيق مشروع وحدة الأمة ورص صفوفها وجمع كلمتها، وتمنح في الوقت ذاته ربما ذلك ـ الخليفة، الأمة ،العلماء ـ القدر الكافي للتربية والتنظيم والتوجيه والتنسيق والمواءمة بين الفكر والسلوك ، وتجسيدها بصدق في مسرح الحياة والأحداث بشكل عملي، وتحقيق الأهداف والأغراض المرجوة من ذلك، فبينما ترى فيه الإسلام يدعو إلى مجموعة من القيم والمعاني والأفكار السامية والمبادئ والمفاهيم القيمة، التي تحدد علاقة المسلم بالخالق والكون والحياة والإنسان والمجتمع، ويؤصل لهذه القيم والمبادئ العامة باعتبارها الأسس الكفيلة التي تضمن صلاح المجتمع ووحدته وهدايته وبقائه واستمرار وجوده وتطوره وتقدمه الحضاري، وبلوغه أعلى درجات القوة والتماسك والثبات، ترى فيه أن الاستجابة من قبل الناس لهذه الدعوة والتمسك بها وقتذاك لا تخلو من الفتور أو عدم الإذعان والاستسلام ، مما أدى إلى ظهور انفصال واضح ومستحكم بين تلك التصورات والمبادئ والقيم، وبين السلوك الإسلامي المطلوب، أو ما بين الفكر النظري والواقع العملي في مختلف مجالات الحياة، أو تقاطع وتنافر بين المجتمع الإسلامي من جهة، وبين السلطة السياسية والدينية من جهة أخرى، ليصبح هذا الانفصال ظاهرة اجتماعية غالبة تجدها عند العامة، كما تجدها عند كثير من أصحاب المناصب الدينية الكبرى، كالقضاء والفتوى والتعليم، وهم الذين يُرتجى فيهم أن يكونوا الصورة المثلى لتلاقي وتلاقح الفكر مع الواقع، وتطابق التصور مع السلوك ، لترى فيه أن من بين بعض علماء الدين ممن لم يعرف حتى الالتزام التام بأمور الدين، وأما أنصار الفلسفة فكانوا يرون أن الدين

شيء خاص بالعامة فقط، ويشعرون أنهم ارفع من ذلك مما دعاهم إلى إهمال التكاليف الدينية[٥]، ونتيجة لذلك صار الولاء للعصبيات والإقليميات الضيقة، بدلاً من الولاء للفكر والدين والمبادئ والعقيدة الواحدة، فتمزقت بذلك الدولة الواحدة إلى دويلات، وانصرف التفكير إلى الهموم والمشاكل اليومية بدلاً من التوجه إلى الأهداف العظام، وصار حال أكثر الناس كما وصفهم أبو شامة: " **كانوا كالجاهلية ، همَّ أحدهم بطنه وفرجه،لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً**"[٦]، وبدلاً من أن يكون العلماء قدوة للناس في التقلل من الدنيا، والدعوة إلى جمع الكلمة، ونبذ الفرقة، صار كثير منهم يتكالبون على الدنيا، ويتزلفون إلى السلاطين والولاة لكسبها، مما أضعف مكانتهم، وأضاع هيبتهم عند الناس.

ومن خلال البحث والتقصي في دراسة أفكار الإمام الغزالي وابرز المراحل التي مرّ بها خلال رحلته الشاقة، فإننا نرى أن الإمام الغزالي لم يقصد قط بتجربته الفلسفية هذه أن يوجد مذهبا فقهيا، أو مدرسة كلامية، ولا أن يبتكر نظاما فلسفياً، لأنه كان يرى أن الإسلام هو الدين والمذهب الحق الذي يجب أن يتبع، وأن تتوحد تحت خيمته جميع المذاهب والأفكار والنحل، وان تنطلق الأجيال في مسيرتها العلمية والفقهية والسياسية والاجتماعية على خطى المنهج القرآني، والتجربة الرائدة للجيل الأول التي رسم ملامحها وصاغ طريقها النبي محمد ﷺ ، وكان هدفه الأول وغايته المثلى أن تواصل تلك الأجيال في حمل هذه الرسالة، وتحمل عبئ مسؤولياتها ونشر مبادئها وقيمها العقائدية والأخلاقية والروحية ونظمها الشاملة على أرضه المعمورة ، ليس هذا فحسب، بل وجدنا أن الإمام الغزالي يذهب إلى ابعد من ذلك، وهو أن يدافع عن الإسلام ومبادئه الحية في وجه الحركات الدينية والسياسية الدنيوية الوضعية، وفي الوقت ذاته أن يحمي العامة من أخطار الفلسفة على إيمانهم، وعلى تمسكهم بأوامر الدين، من اجل ذلك كله استحق من معاصريه لقب حجة الإسلام ولا يزال يستحقه(٧)، وفي الأخر نود أن ننوه أيضا أو نشير من خلال ما تلمسانه في كتابه من معاني أو أفكار

ودلالات لا تقل أهمية عما ذكرناه، وهو إن ما أحدثه الإمام الغزالي وقام به طيلة فترة بحثه كان ثورة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني، فهي ثورة بالفعل على الذات عندما بدأ أول ما بدأ بنقد ذاته، وثورة على الواقع والقيم السائدة بكل اتجاهاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية ومضامينها الحضارية ـ موضوعي ـ عندما بدأ بدراسة ذلك الواقع المأساوي لأمته الإسلامية، إنها حقا ثورة في العقل الإسلامي، ومبادئ الأمة الأخلاقية والسلوكية، ومنظومتها الحضارية والفكرية والثقافية، وفي ذات الوقت إن ما أثار انتباهنا في هذا الكتاب مباشرته في ابتكار وسنّ فكرة الاطلاع على الرأي الآخر المخالف إطلاعا دقيقا يبلغه، ثم يتجاوزه إلى ما توصل إليه، "**فهو لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غوره وغائله وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا**"(٨).

ثانيا: نبذة عن كتاب المنقذ من الضلال.

الكتاب يذكر فيه قصة إبحاره نحو الحقيقة، وأنه مشى مع الفلاسفة والمتكلمين والباطنية والصوفية حتى يحصل الحقيقة الفطرية.. ، ويحدد الفترة التي أصيب فيها بالسفسطة في العقليات والحسيات. ، ثم يقرر وصوله للحقيقة عن طريق الكشف ، ثم يقسم الطرق التي سلكها إلى أربع طرق (المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية)،ثم يذكر قصته مختصرة مع كل فريق، وخلاصة رأيه فيه، وحط في ذكره على الفلاسفة بكلام منه الجيد، وقسم علومهم وذكر لمعاقد النقد لكل علم من علومهم، وانتصر للصوفية وطرقها في الكشف من الرياضيات، والخلوات، والعزلة . ولعلّ أبرز الأهداف والرسائل التي كان يحملها كتاب "**المنقذ من الضلال**" ما يأتي:

١. رســالة تحمل في طياتها تجربة فريدة ومتميزة ورائدة لجيل عصــره والأجيال من بعدها، يضـع لها من خلاله منهجا محددا تهتدي بها في المسير، وتساعدها في اختيار أساليب التفكير ومناهج البحث الصحيحة للوصول إلى الاعتقادات اليقينية الثابتة، والانعتاق من كل الأســاليب التقليدية والتعصــب، بهدف وحدة الصــف وجمع كلمة الأمة على عقيدة يقينية ثابتة، ترتكز عليها رجال الأمة ومثقفيها في بناء جيل واع يحقق نهضة الأمة ووحدتها العقائدية والسياسية.

٢. معالجة الأمراض النفسية والاجتماعية التي تنخر بالأمة، فلقد انتبه الإمام الغزالي إلى هذه الأمراض، وخاصة مرض الغفلة عن الله سبحانه وتعالى، والانغماس في الملذات والشهوات، وكل ما يبعد الإنسان عن ربه تعالى، فسعى إلى معالجة هذه الأمراض.

المبحث الثاني

الملامح المنهجية في فكر الغزالي

أولا: منهج الغزالي:

١- الشعور بالمشكلة :

بعد رحلة طويلة بدأ فيها الإمام الغزالي مراجعةً علميةً موسعة لكل الأفكار والمعتقدات والتصورات التي تلقاها في عصره عبر مجتمعه بكل اتجاهاته ومذاهبه وأفكاره المختلفة والمتباينة، التي باتت بمرور الوقت تثير القلق لدى الكثير من العلماء في ذلك العصر على مصير ومستقبل دين الإسلام ومبادئه العقائدية والتشريعية والسلوكية والنفسية والاجتماعية، لا سيما الإمام الغزالي الذي تلمس هذه المشكلة التي بدت تطغى على سطح وواقع الحياة الإسلامية وبدت تشكل خطرا على كيان الأمة العقائدي والسياسي والفكري والثقافي والاجتماعي، وتهدد وحدتها وحياتها ووجودها وأمنها ، وكذلك بما تشكله تلك الظاهرة من انحراف واضح عن المسيرة التي رسم خطوطها النبي محمد ﷺ ، وجسدها الرجال الأوائل من الصحابة والتابعين الأوائل، تلك التصورات و

الاعتقادات والمفاهيم والأفكار الشـــائعة التي كانت تحمل في ثناياها ريح الفرقة والاختلاف والتمزق والشـتات والضـياع، والتي فرّقت بين الإسـلام الذي جاء به القرآن الكريم والسـنة النبوية الطاهرة، وبين مفهوم الإسـلام الذي ورثه الناس عن آبائهم وأجدادهم في ذلك العصر.

٢- دراسة وتشخيص المشكلة :

هذه المشـكلة الخطيرة التي عاشـها الإمام الغزالي، التي شـعر فيها مدى حاجة الأمة إلى مراجعة ودراسة شاملة لأفكارها ، وضرورة المشاركة والمساهمة في إحداث التغيير اللازم بما توجبه عليه وتمليه وظيفته ومســـؤوليته العقائدية والدينية والأخلاقية تجاه عقيدته ومبادئه الأخلاقية ، لذلك اعتمد الإمام الغزالي مراجعة ودراســة شــاملة لتلك الأفكار والمعتقدات والتصـورات؛ ليميز للناس بين الإسـلام الذي يتمثل في القرآن الكريم والسـنة النبوية ، وبين الإسـلام الذي يرثه الناس عن آبائهم وأجدادهم ، وعن المحيط الذي عاشــوا فيه ؛ نتيجة ما تشـكّل لديهم من عـادات وأعراف وتقاليد ، وهي أبعد ما تكون عن جوهر الإســـلام ومبادئ وروح الدين الصـــحيح، كما لم يغب عن باله أثناء مراجعته ودراســـته الاتجاهات النفسـية والميولات والدوافع وتشـكيل الاتجاهات والمعتقدات والأفكار وغير ذلك مما يكمن وراء صـــياغة هذا السـلوك أو ذاك بكل أبعاده، والتي سـاهمت بشـكل أو آخر في انحراف الفرد عن عبادة الله – سـبحانه وتعالى – إلى تقديس الذوات وإتباع هوى النفس والشـيطان والتعنت والتزمت والتعصـــب لأفكار معينة خاصــة ومحددة ، هذه العادات وتلك الاتجاهات والقيم التي نمت وتطورت وتبلورت عن غير فهم وإدراك بمنـأى عن الفكر والعقل عبر مراحل زمنية معينة بظروف اجتماعية محددة ، وواقع سياسي مشتت ومضطرب، أدت بالإنسـان إلى أن يبحر في شـهوات الدنيا وملذاتها ويغرق في شـواطئها ، وأن يتهالك عليها ، وأن يتنافس فيها ، وأن يبتعد فيها عن معاني الزهد والإيثار والصدق والحياء والوفاء والخير والعدل والرأفة و.و.و.... .

٣- المعالجات والحلول:

بعد تشخيص الإمام الغزالي للمشاكل التي يعانيها مجتمعه، حاول أن يقدم لنا منهجه الذي تناول فيه إصلاح ومعالجة مشاكل المجتمع وتقديم العلاج الناجع لها ، كما شملت معالجة الغزالي لشؤون الإصلاح والتجديد وتطوير مناهج التغيير وإعادة صياغة مبادئ البحث والتفكير وتحديد أهدافها وفق مبادئ الدين الإسلامي وأصوله الشاملة المستمدة من القران الكريم ، منها ما أظهره في كتاباته لا سيما : "كتابه المنقذ" ومنها ما أشار أو لمح إليه ضمنا ، وهي كالتالي:

١. الكمال النفسي والصفاء الروحي والذهني: وذلك من خلال ارتقاء النفس البشرية من مجال الحس إلى مجال التفكير، والارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للأهواء والشهوات إلى مقام العبودية وتصل إلى أقصى مراتب الكمال الإنساني باقترابها من الخالق سبحانه، وهذا القول يدل على أن المعرفة تحصل في النفس بطريقتين مختلفتين الأول هو طريق الحواس والاعتبار والمشاهدة.
٢. تخليص العقيدة الإسلامية من مجال النظر العقلي والفلسفي المحض معا للوصول إلى الحقائق اليقينية التي تزيل معها الشكوك وتتوصل إلى الاعتقاد الجازم المطابق للمعلوم.
٣. اعتماد النقد الذاتي والموضوعي، وعدم القبول بإلقاء اللوم والمسؤولية على الخصوم، التي جذبتها عوامل الضعف الداخلي أو عوامل أخرى، فكان الغزالي يعالج قابلية الهزيمة، بدل التباكي على مظاهر الهزيمة.
٤. ابتكار وسنّ فكرة الإطلاع على الرأي الآخر إطلاعا دقيقا أو تقبل الفكر المخالف، وتحريضه التمسك بحرية التفكير.
٥. التحري في ضبط الحقائق، والوقوف موقف الحياد من كل موضوع يريد بحثه، فإذا ترجحت عنده جوانب القوة في ذلك الموضوع أحبه، وإذا تبين له ضعفه وفساده اعرض عنه وحطمه تبعا لما فيه من خطورة على الفكر السليم .

٦. قوة الحجة وسداد البرهان والقدرة الفائقة على الجدل والدقة في تمحيص الأقوال[٩].

٧. البدء بالإصلاح الفكري والنفسي، للوصول إلى التغيير، بدلاً من البدء بالإصلاح السياسي أو العسكري.

٨. التأكيد على ضرورة الوصول إلى الحقائق اليقينية الثابتة وتطهير المجتمع الإسلامي من الأمراض الاجتماعية التي نهشته من الداخل [١٠].

ثانيا: ملامح المنهج الفكري والعلمي الفلسفي الذي وضعه الإمام الغزالي :

سنحاول في هذا المبحث الكشف عن ابرز مناهجه الفكرية والعلمية وأساليبه التربوية والإصلاحية التي دعا لها الإمام الغزالي، وسعى إلى تحقيقها انطلاقا من رؤيته العقائدية والتاريخية والاجتماعية والفكرية، ومشروعه الحضاري ومنهجه التربوي الإصلاحي، والتي تبناها وسعى إلى تحقيقها، والتي تبلورت ملامحها وارتسمت حدودها من خلال دراسته الواسعة الشاملة لواقع الأمة بكل صوره وأشكاله وتناقضاته ، وانتقاداته الموضوعية لما هو شائع في عصره من طرق وأساليب ومناهج عقائدية ومذهبية وفكرية ونفسية متباينة ومختلفة، معتقدا بعدم قدرتها ومواكبتها لتحقيق الإصلاح والتغيير الواعد الذي يرتقي بالأمة وأبناءها وعلمائها في الدفاع عن دينها وكرامتها ووحدتها ، فانبرى بنفسه ليضع منهجية واضحة، وجد بها الضالة التي يمكن أن تحقق للمجتمعات الإسلامية الوحدة العقائدية والسياسية التي تتناسب مع فلسفته ورؤيته العقائدية ومفهومه الحضاري في بناء الفرد والمجتمع ، من خلال تجربته الفريدة التي سطرها في كتابه: "**المنقذ من الضلال**"، ولعلّ أهم ما توصّل إليه الغزالي في هذه المرحلة من مراحل حياته الفكرية والفلسفية هو ما يأتي:

نبذ التقليد الأعمى والبحث عن الحقيقة:

لعلّ من ابرز الملامح التي تميز فيه منهج الشك عند الغزالي :هو نبذ

التقليد الأعمى والبحث عن الحقيقة، الذي يتضمن معنى قوله: التجرد والموضوعية وعدم الانحياز لأي طرف من الأطراف لتسهيل مهمته في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، لأنه رأى أن إيثار تقليد على تقليد وهمٌ وحمقٌ وضلالٌ وخرقٌ، وسعى إلى التمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات (١١)، وقد علل الإمام الغزالي موقفه وفعله هذا ، كثرة الفرق والملل والمذاهب ، وتعدد طرقها وعدم وضوحها بالبحر العميق الذي غرق فيه الكثيرون، ولم ينجو منه إلا الأقلون، فمع تضارب الآراء والاختلافات، فقد كانت كل فرقة ترى في نفسها الصواب، وكان كل فريق يزعم انه الناجي، فكان الغزالي وسط هذه الآراء المتضاربة والملل المختلفة ينشد الحق ويدعوا له، واقتضى منه ذلك البحث والتفتيش والتمحيص والتدقيق وتحكيم العقل، واستعمال النقد الجرئ الخلاق والبناء، ويروي لنا الغزالي في "المنقذ من الضلال" تجربته من الشك إلى اليقين ـ التي صنفها بعض الدارسين بالعوامل الداخلية (١٢) بقوله:" **كما وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني، من أول أمري، وريعان عمري،غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي، وحتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ، فقلت في نفسي: أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟**" (١٣)، ثم يرسم بعدها صورة الرغبة الجامحة والاندفاع الكبير لديه وهو يواظب على طلب العلم ونهم وقراءة كل ما تطوله يداه وعيناه ، ليكشف لنا مدى ثراء ذاكرة الغزالي المعرفية وعمق تجربته الفكرية والوجدانية بقوله : " **ولم أزل في عنفوان شبابي– منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين– أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على**

باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته"(١٤) .

فهو منذ ريعان عمره وحتى قبل بلوغ العشرين وحتى الخمسين يقتحم لجة كل العلوم النظرية والعملية بحثاً عن اليقين، هذا الذي طال جميع أصناف الطالبين في أيامه ، الفلسفة ، وعلم الكلام ، والصوفية وحتى الزنادقة لم يغربوا عن باله ولم يفلتوا من مقاله ، وكان في ذلك متعطشاً لدرك حقائق الأمور غريزةً وفطرةً وضعن في جبلته لا باختياره ولا جبلته، هذا هو منهجه رحمه الله في الدراسة والبحث كما يصفه لنا الإمام الغزالي نفسه للوصول إلى حقائق الأشياء وكنهها رغبة فيها لا رهبة منها ، وهي تمام عدة الباحثين والدارسين ، وملاذ العارفين، ومبتغى المخلصين، ولعلّ من شدة رغبته وإخلاصه للوصول إلى الحق تجرده من كل مؤثرات وعوامل وراثية وبيئية ، لينزع بنفسه الوصول إلى صفاء الفطرة ونقائها وصفائها ، لتتولاه بعد هذا عناية الله ورعايته للوصول إلى مبتغاه وغايته ، وذلك من قوله رحمه الله : "وبذلك انحلت :

أولاً: رابطة التقليد :

وثانيا : انكسرت عليه العقائد الموروثة : والذي بات معها يشك في جدوى مناهج العلم ، بل وفي صحة العلم نفسه ، حتى زالت ثقته بقدرة الإنسان على العلم والمعرفة(١٥).

وثالثا: تحرك باطنه إلى طلب الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة لتقليد الوالدين والأستاذين.

ومن هنا فإن تركيز الغزالي على باطنه قد تحرك يعني انه حدد ووضع وأضاف لمنهجه معياراً جديدا آخر ألا هو المعيار النفسي يحركه ويوجهه لطلب

الحق إلى جانب العقل والفطرة والعناية الإلهية : التي تعني سكون النفس إلى ما تعتقد، "وينكشف لها العلوم انكشافاً لا يبقى مع ريب ولا يقارنه إمكان الغلط ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك "(١٦) ، وهذا المعنى يتطابق كثيرا عما ورد في حديثه ﷺ في معرض جوابه على سؤال احدهم: " البر ما انشرح في صدرك ، والإثم ما حاك في صدرك"(١٧) ، وليتبلور من خلال تلك التجربة والرحلة العلمية منهجا ثانيا ربما لا يقل أهمية عن منهجه العلمي والفكري في دراسة الواقع العقائدي والسياسي والاجتماعي والثقافي ألا هو المنهج التربوي الأخلاقي أو الروحي أو التصوف الحق ، والذي حاول فيه وضع منهج مستمد من القران والسنة النبوية لإعادة صياغة الإنسان المسلم التربوي والأخلاقي والنفسي ليكتمل بناء منهجه الذي بدأه مع رحلته الشكية نظاما شاملا عقيدة وشريعة وسلوكا(١٨).

٢. رحلة الشك مع الامام الغزالي:

في البدء نود الإشارة إلى أن الإمام الغزالي لم يكن يبحث في بحثه في الحقيقة المطلقة ـالحقيقة الشاملةـ لجميع نواحي الوجود كما هو شأن الفلاسفة الذين يتناولون جميع نواحي الوجود بحثا وتمحيصا واستنتاجا، كالبحث في الرياضيات والطبيعيات والمنطقيات والإلهيات، وإنما كان يبحث في الحقيقة في الإلهيات وفي مسائل طبيعية تتصل بها فحسب (١٩)، وتعد هذه المرحلة من أهم المراحل المهمة والخطرة والحاسمة التي مرّ بها الإمام الغزالي والتي تعني إلغاءه بل تخليه عن جميع المسلمات والنتائج والأدلة التي آمن بها من قبل، والتي اكتسبها من مصادر ومؤثرات عدة سواء عن طريق الوالدين والعلماء ـ والأستاذين ـ أو البيئة والتنشئة الاجتماعية ، بل ربما وضعها في موضع الشك والدراسة تمهيدا لبدء عملية البحث والدراسة والتمحيص والتحقيق فيها ، أو بمعنى آخر هو محاولة الغزالي بدقة ويقين وتخطيط مسبق بدراسة تلك الثقافات دراسة واعية اطلع من خلالها على ثغراتها ومخالفتها للنقل الصحيح والعقل الصريح ، فانكب في الكشف عن زيفها وانحرافها وخطورتها وبيان تهافتها،

وقد بدأ الإمام الغزالي رحمه الله أول ما بدأه بحثه عن اليقين من خلال تحديد مصادر المعرفة التي سيعتمدها فيما بعد كمعيار مادي في دراسة وفحص وتقييم الحقائق وإصدار الأحكام ، فكان لا بد له أن يوجه النظر إلى نفس الأدلة ويفحص موازين الحقيقة، وقد فحص هذه الموازين في ضوء العلم اليقيني(٢٠) لا سيما منها العقل والحواس، فإنهما من القوة والوثاقة بحيث يظهر للإنسان لأول وهلة أنهما يوصلان إلى هذا النوع من العلم الذي ينشده الغزالي، أما ما عداهما من الموازين الأخرى التي كانت معروفا لذلك العهد فلم يرتب من أول الأمر في أنها لا توصل إلى يقين(٢١).

أولا: مرحلة اختبار المحسوسات: .

عمد الإمام الغزالي في بداية بحثه بتفحص المحسوسات واختبارها لاعتمادها كمصدر من مصادر البحث والياته، وبعد حديثه عن العلم غاص الإمام الغزالي في رحلة البحث عن اليقين، وقد ظن أنه لا مطمع في اقتباس المشكلات إلاَّ من الجليات وهي: (الحسّيات) "فأقبلتُ أتأمل في المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أنْ أشكك نفسي فيها؟! فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات، وأخذ يتسع هذا الشك فيها، ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة نعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدرُّج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف؟! وننظر إلى الكوكب فنراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدلُّ على أنه أكبر من الأرض في المقدار؟!هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته"[٢٢]، وبعد انتهائه من عملية السبر والاختبار بالمحسوسات لم يقبل الغزالي بميزان الحس على علاته، بل اخذ يشكك نفسه فيها ويتقصى عما عساه يكون فيه من ضعف، فيرفضها على أساس أو يقبلها، إذن بطلت الثقة بالحواس

لديه، فلم يبق له إلا العقل، فماذا سيكون موقف الغزالي منه ؟ وما نتيجة التشكيك فيه؟ هل سينال منه كما نال من الحواس؟ أم سيثبت العقل قدرته وجدارته[٢٣].

ثانيا: مرحلة العقليات:.

فلما بطلت ثقة الغزالي بالمحسوسات لجأ إلى طلب اليقين في العقليات، لكن موقفه من العقل كان على خلاف موقفه من الحواس الذي استطاع بنقدها لها أن يضعف من شأنها ويحط من قدرها ، لكن لم يستطع الإمام الغزالي أن يقف للعقل على زلة ، أو يضرب له مثلا يكون قد زاغ فيها عن الجادة ، وكان كل ما فعله معه أبدى احتمالا ضعيفا ، إلا انه مع ذلك غض من قدر العقل وشكك فيه[٢٤] قائلا :" **قالت لي المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني ؟! ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته!!، فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أمورا وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ؟ ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك أصل أو طائل ، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها** "[٢٥] ....و .و حتى أكثر الإمام الغزالي الكلام في تبرير موقفه من العقل باتهامه بالضعف والعجز، لأنه قوي لم ترهبه هجمته ولم تصب مقتله رميته، وان نالت منه بعض الشيء ومهما يكن من شيء فقد نفض الغزالي يده من العقل والحواس كليهما ، فماذا بقي له إلا الشك العنيف(٢٦) ، وهكذا اخذ الغزالي يزداد حيرة وشكا مع الأمثلة الثلاث (الموت، وحالة الصوفية، والنوم)، فقال:" **فلما خطرت لي هذه الخواطر وأنقدحت في النفس حاولت لذلك علاجا ، فلم يتيسر له علاج إذ لم**

يكن دفعه إلا بدليل، ولم يكن نصب دليل ألا من تركيب العلوم الأولية " أما عن تلك العلوم الأولية فان الغزالي لا يسلم بها" [٢٧] ، فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين لبث فيهما الغزالي على مذهب السفسطة، ولك بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال حتى شفاه الله تعالى من ذلك المرض، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على امن ويقين. ولم يشك الغزالي في مقدرة العقل إلا في عجزه عن البحث في الماورائيات أو ما وراء الطبيعة ، هكذا وينتهي مطاف الشكي عند الغزالي إلى حقيقة تشمل الشرع والعقل، حيث اعتبر العقل شرعا داخليا والشرع عقلا خارجيا، وما الفرق إلا في العجز الماورائي للعقل، وهنا سوف يتدخل الوحي والإلهام في إنقاذه ليس إلا (٢٨).

إنَّ تأمُّل الغزالي في المحسوسات والعقليات هو الأساس الذي يستخلص منه الباحث نظرية الغزالي ومنهجيته في البحث، حيث سلك كافة الطرق التي ظَنَّ أنها تصل به إلى اليقين ، ليخرج في نهاية المطاف بمنهجية متكاملة في البحث تأثر بها فلاسفة العصر الحديث ، ومنهم من قلَّده فيها تقليداً كاملاً لعل أبرزهم هو ديكارت(٢٩).

ولكن كيف تَمَّ الشفاء من ذلك المرض ؟! أ بالبحث والنظر أم بالتجربة والاختبار؟ فيجيبنا عن ذلك بقوله: " **ولم يكن ذلك الخلاص من الشك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظَنَّ أنَّ الكشف موقوف على الأدلة المحررة؛ لقد ضَّيق رحمة الله الواسعة ، ولما سئل الرسول عن (الشرح) ، ومعناه في قوله تعالى :[فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ]** (٣٠)، **فقال :هو نور يقذفه الله في القلب، فقيل : وما علامته: فقال التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، وقد عقب الغزالي على حديث رسول الله: (إن الله تعالى خلق الخلقَ في ظُلْمةٍ، ثم رشَّ عليهمْ من نُورِهِ) فمن ذلك النور ينبغي إن يطلب الكشف"**(٣١).

ثالثا: مرحلة الفطرة والرعاية الإلهية

يتضح مما تقدم أنَّ أبا حامد الغزالي لم يصل إلى اليقين في العلوم بطريقة تقليدية ، بل تتبع طرق البحث المختلفة ووسائلها المتعددة من حواس وعقل، فعلم أنها لا تقود إلى الحقيقة الكاملة، بل أحياناً تعطيك عكس الحقيقة . مثال الظل . وتارة تعطيك الحقيقة ناقصة . مثال الكوكب هذا فيما يتعلق بالحواس، وهنا ينبغي أن نقف قليلا حول هذا المعنى لنستخلص أن الأمام الغزالي لا يعني الإنكار المطلق للمحسوسات والعقل كمصدرين من مصادر المعرفة، بل هو يؤكدها جميعا كمصدرين أساسين مهمين يستعين بهما للوصول إلى الحقائق اليقينية الكونية، التي ينبغي أن ترتكز معرفتها على محور ثابت من حقائق الأنفس والآفاق والقيم المنبثقة منها، وهذا المحور الثابت لن يجده إلا في الوحي الإلهي الصادق المتمثل في صورته الثابتة في القران الكريم ، وبهدي من الله وتوفيقه الذي يحتاج إلى الإخلاص ونقاء الفطرة وصفائها، وتجرد النفس البشرية من الأهواء والأغراض الدنيوية وآفاتها، وهذا ما توصل له بالفعل الغزالي، وكان سببا للوصول إلى الهداية والانشراح عن طريق منهج الصوفية الحقة الذي وجد فيها مراده وخلاصه، ذلك كما يقول الدكتور محسن عبد الحميد :" **إن الهوى المعبر عن حركة الانفعالات الغريزية لدى الإنسان يعيق العقل عن حركته السليمة ويحجبه عن الإدراك السليم لحقائق الأشياء بل يعطله أحيانا تعطيلا كاملا ، فيستعين الإنسان به ويعتمد عليه ، فلا يضع الأمور في أماكنها الصحيحة ، فينتهي إلى إلحاق الضرر والظلم بنفسه**" (٣٢) ، ويبدو ذلك واضحا من خلال اعترافاته في كتابه المنقذ عندما يذكر لنا معاناته وحزنه من شدة لوم نفسه ومحاسبتها بقوله: " **ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي –وأحسنها التدريس والتعليم– فإذا أنا فيها مقبل علـى علوم غير مهمـة ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في**

التدريس فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا، بعد، على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما واقدم فيه رجلا وأخرجه عنه أخرى؛ لا تصدق لي رغبتى في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل، الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن (هذه العلائق) فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار.ثم يعود الشيطان ويقول: "هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي من التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي من منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة ، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.." (٣٣).

مما تقدم نرى أن الغزالي يضع أصولاً للنقد ومنهجية للبحث، وهذا النص يعالج إشكاليات النقد المعاصر، الذي يكون النقد هو الهدف وليس البحث عن الحقيقة، لذلك لا يهم الناقد الوقوف على المصدر الأساس والحرص على دراسته وفحصه، بل يكفي عنده السماع من وساطة أو الوقوف على النص مبتوراً أو التسرُّع في قراءته، ليخرج بعد ذلك على الملأ برؤية كاذبة تسهم في تصدُّع الفكر، وبهتان العلم والعلماء(٣٤). وهكذا تحدد للإمام الغزالي معيار اليقين عند الغزالي بنور إلهي، هو مفتاح أكثر المعارف عقلية كانت أم روحية أم تجريبية،إنها معيارية

نفسية دلالتها سكون النفس وانكشاف الغطاء وتثبيت العقل وسلامة الحكم ، وهذه الحقيقة أصبحت صفة ملازمة للغزالي ، حتى لم يكن لمثل الغزالي– مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر وعلمه الذي لم يزل في نمو مستمر– أن يكون ناقلا لكلام المتكلمين المتقدمين، أو يكون شارحا له فحسب، ولا تظهر شخصيته العلمية في ما يكتب ويؤلف ويفكر (٣٥).

رابعا: الوصول إلى اليقين ـ العلم ـ

وبعد هذه الرحلة توصل أخيرا إلى معرفة حقيقة العلم بقوله:" **فظهر لي: أن العلم اليقيني: هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه –مثلاً– من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يرث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإني إذا علمت: أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه! فأما الشك بسببه فيما علمته فلا ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني**"(٣٦) ، وذلك يعنى بعد استقراء الواقع وفهم أجزاءه وتحليل وتركيب عناصره ، يقف بكل ثقة وثبات على حقائق الأشياء والعلم بها، ليصيغ بها مقدمات عقلية وفق التسلسل المنطقي المعروف للوصول إلى نتائج علمية يقينية ثابتة (الحكم والتقييم) ـ لا سيما في العقائد الدينية ـ لا تقبل النقاش أو الرد إلا وفق دراسة مماثلة في الطريقة والمنهج والآليات ، يأمن فيها الاختلاف والتناقض والتضاد ويضمن فيها التطابق والتوافق بين أدلة الإثبات وبين المعلوم أو الواقع أو الأخبار أو سمها ما شئت نفيا أو إثباتا، من هنا يبدو لنا بشكل واضح أن الغزالي

لم يكن ريبيا (متشككا)، بل كان شكه شكا فلسفيا عقليا علميا حذرا ، وهو واسطة ووسيلة مشروعة للوصول إلى اليقين ، لذا يرجع الدكتور سليمان دنيا مبدأ شك الغزالي إلى مسألة النفس، الذي جره إلى الشك في اليوم الأخر ،ومن ثم صدق الأنبياء وبعض المسائل الإلهية كقدرة الله، ويرى أن خروجه من شكه وبلوغه مرحلة اليقين له مرحلتان أيضا :.

- المرحلة الأولى: رجوعه إلى الوثوق بالعقل مقياسا للمعرفة عن طريق نور وكشف.
- المرحلة الثانية: توثيقه للفرق والطالبيـن التي تأخر عنها حتى امتحنها وألف فيها[٣٧] .

وقد عرَّف فيما بعد أبو حامد الغزالي(العلم) في احد مؤلفاته، فقال هو: " **الاعتقاد الجازم المطابق للمعلوم، ويكون على بصيرة ويتصف بالثبات عند التشكيك**"[٣٨]. فهذا التعريف يميز العلم عن الظن والشك والوهم والتقليد. وهنالك من اعترض على هذا التعميم في تعريف الغزالي، وقال: "إنَّ علم الله ليس على بصيرة وكشف وانشراح كعلم الإنسان"[٣٩]. ويمكن القول هنا بأنَّ الغزالي يقصد علم الإنسان وليس علم الله تعالى، لأنَّ في تناوله للعلم تحدث عن حاكم الحس وحاكم العقل وإمكانية الثقة بهما، وهذا مما يشير بوضوح إلى أنه يتحدث عن علم البشر، وما يزيد ذلك تأكيداً قوله: "**اعلم أنَّ العلم تصوُّر النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها، وكيفياتها، وكمياتها، وجواهرها، وذواتها، إنْ كانت مفردة، والعالم هو المحيط المدرك المتصوّر، والمعلوم هو ذات الشيء الذي ينتقش علمه في النفس**"[٤٠]. من كل ذلك يشير الدكتور(سليمان دنيا) [٤١] ويقول في ذلك:" لقد سجل (الغزالي) ظاهرة فكرية قدرها فيه وأكبره من أجلها رجال الفلسفة ، لـقد حاول

(الغزالي) بهذه الظاهرة أن يؤسس دعائم قوية يقيم عليها بناء المعرفة سليماً قوياً:

١-فلقد وضع للمعرفة منهجاً قويماً.

٢-وللعلم حداً دقيقاً يخلصه من عناصر الغموض واللبس.

٣-وأظهر استحالة الوثوق بالعقل عن طريق العقل نفسه.

٤-وضرب أمثلة جديرة بالاعتبار لبيان إمكان خطأ العقل في أحكامه، وأخرى لبيان إمكان خطأ الحواس.

٥-ورد أساس المعرفة إلى الإلهام لا إلى العقل، إذ لولا الثقة في أن الله لا يمنحنا طبيعة مزيفة لما أمكننا التعويل على العقل في اكتساب المعرفة".

المبحث الثالث:

موقف الغزالي من الفرق التي عاصرها

أولا:: الغزالي وعلم الكلام:

أما الاشتغال بعلم الكلام بحثا وتأليفا ، فالغزالي يحدثنا بعد أن وثق بالعقل ومبادئ الفكر الأولية اخذ يدرس مناهج الحقيقة عند الفرق الأربع التي كانت معروفة لعهده على الترتيب[٤٢] ، (علم الكلام، الفلسفة، مذهب التعليمية، مذهب الصوفية)، وسواء أكان نظر الغزالي في علم الكلام في المعسكر أم في بغداد، فأن علم الكلام لم يرق الغزالي، ولم يثبت جدارته وصلاحيته، أمام الامتحان الذي عقده له الغزالي ، فلم تكن الحقيقة في نظر علماء الكلام هي الحقيقة التي ينشدها الغزالي[٤٣]: وفي صدد تقييمه لعلم الكلام والحكم عليه يقول :" **ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت**

فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير وافيا بمقصودي ... وإنما مقصوده حفظ العقيدة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة"(٤٤)، إلا انه ما لبث الغزالي أن توصل إلى نتائج علل موقفه من هذا العلم بأنه "**غير واف بمقصودي**" يمكن إجمالها بالنحو الآتي: كونهم :ـ

ـ "**اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار، وكان أكثر خوضهم في استخراج تناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً، فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً**"(٤٥).

ـ كما اعتمد هذا العلم على التقليد، وبالتالي انحرف عن العلاج الحقيقي، وليس كل دواء هو نافع، فيقول:"**نعم لما نشأت صنعة الكلام،وكثر الخوض فيه،وطالت المدة،تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها،ولكن لم يكن ذلك مقصود علمهم،لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق،ولا أبعدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيري،بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة،ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات،والغرض الآن:حكاية حالي،لا الإنكار على من استشفى به،فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء،وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر**"(٤٦).

ـ أكثر أقيسة الجدليين من المتكلمين والفقهاء في مجادلاتهم وتصنيفاتهم مؤلفة من مقدمات مشهورة فيما بينهم سلموها لمجرد شهرة وذهلوا عن سببها، ولذلك نرى أقيستهم تنتج نتائج متناقضة فيتحيرون فيها وتتخبط قلوبهم

في تنقيحها [٤٧] ؛ فبسبب الغفلة عن مثل هذه الدقائق خبط المتكلمون وكثر نزاعهم إذ تمسكوا بالرأي والقياس، وذلك لا يفيد برد اليقين، بل يصلح للأقيسة الفقهية الظنية .... [٤٨].

ويرى الغزالي أخيرا ابتعاد العوام عنه، ووجوب الرجوع إلى التقيد بما فهمه المسلمون الأولون من العقائد الإسلامية ، وعودة إلى تفضيل ما جاء به النقل على ما يوجبه العقل أحيانا، لان العقل عاجز عن الفصل في الأمور المغيبة كالإلوهية والنبوة والنفس والآخرة [٤٩]. ومن خلال ما تقدم من النصوص في كتابه المنقذ وغيره من المؤلفات الأخرى، أن موقف الغزالي من علم الكلام ليس كما يورده كثير من الباحثين بأنه موقف سلبي .... ، أو انه يشابه الفلسفة؟ بل الأمر فيه تفصيل لا يسعنا أن نورد هذه الأدلة في هذا البحث، وخير دليل على قولنا كثرت مصنفاته في بداية حياته وحتى أواخرها في تصنيفه للكتب عن هذا العلم، بل حتى ألف كتابا عن ذلك بعنوان "**الجام العوام عن علم الكلام**" ، وبين على أهمية هذا العلم لكن من حيثياته الآتية:

فرق الإمام الغزالي بين حاجة العامي إلى علم الكلام، وحاجة العالم، فالعامي يكفيه الأدلة الظاهرة التي لا تدقيق فيها، ويجب بعد تصحيح عقيدته أن ينصرف إلى العمل والعلم المفيد له في دنياه وآخرته، ويشتغل على نفسه لتعميق معالم العقيدة، وأما العالم فان درجة اهتمامه بهذا العلم تتفاوت بحسب الحاجة إليها، إما لنفسه أو لغيره ممن يحتاج إلى علم الكلام لدفع شبهة أو تحقيق حكم شرعي أو عقائدي.

الحاجة إلى علم الكلام بحسب اختلاف الأزمان ، فان انتشرت البدعة في زمان وعمّت الناس حتى سببت انحرافا أو بعدا بين الناس وبين التصور الصحيح لأهل الحق فان على المتكلمين أن ينشروا علمهم ويعملوا على صيانة عقائد الناس

وحراستها وقمع المبتدعة والرد على الملحدين وتسفيه أحلامهم وهدم مبناهم ، ولكن إذا خلا الزمان او المكان عن شر المبتدعة والمنحرفين فلا يصح للمتكلم أن يلجئ العامة إلى الكلام في دقيق المسائل بل يكتفي بالاعتماد على الأدلة الظاهرة وهي غالبا من نمط الأدلة التي جاءت في القران الكريم وهي تكفي صاحب الفطرة السليمة .

إن الإمام الغزالي ينتقد علم الكلام من جهة طرق الاستدلال التي يكثر المتكلمون من الاعتماد عليها كالطرق الجدلية ويدعوه إلى الاهتمام أكثر بالطرق التحقيقية التي ليس الغرض منها فقط معارضة الخصم أو إفحامه.. [٥٠].

ولكنه قد يتسآل البعض قد أوردتم مقاصد أهل الكلام عند الغزالي ، فما هو مقصود علم الكلام عند الغزالي ، نجيب ومن خلال ما تقدم تفصيله: هو إدراك الحقيقة إدراكا تؤيده الضرورة العقلية التي لا وثوق إلا بها ، حتى تكون من نوع العلم اليقيني الذي حدده وشتان ما بين المقصدين[٥١] .

ثانيا: الإمام الغزالي والفلسفة.

وكان إطلاع الغزالي على علوم الفلسفة، أثناء تدريسه في بغداد، وقد أتى على منتهى علومهم في أقل من سنتين ، ثم واظب على التفكر فيها قريباً من سنة ، حتى انكشف له ما فيها من خداع وتلبيس، وبعد الفراغ من علم الكلام، ابتدأ الغزالي بعلم الفلسفة وحصّل فيه أقوالهم وبراهينهم، حتى فاقهم في فهم ما قالوه، وكشف الغزالي من خلالها مدى تهافت الفلاسفة وتناقضهم في الأمور الإلهيات، حيث تساهلوا غاية التساهل ولم يوفوا بالشروط التي وضعوها في منطقهم، وليس متناقضا كما يشاع ذلك أن الغزالي وجه نقد الفلاسفة في موضوع الإلهيات، والى تناقض الفلاسفة في استخدامهم للمنطق، فالغزالي لم يرفض استخدام العقل في العلوم الإلهية ولكنه رفض الاضطرابات والتناقضات

التي وقعوا فيها [٥٢]، وبالتالي وكما يوجز الغزالي في المنقذ بقوله : **"وأما الإلهيات ففيها أكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها**"[٥٣]، وقد قدم لنا خلاصة دراسته تلك في تحليل دقيق ، وقد صنف الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام :

الصنف الأول: الدهريون، وهم الذين جحدوا الصانع، وهؤلاء هم الزنادقة.

الصنف الثاني: الطبيعيون، وهم اعترفوا نتيجة كثرة اشتغالهم بعلم التشريح ، بوجود فاطر حكيم مطلع على غايات الأمور وأبعادها .

الصنف الثالث : الإلهيون، المتأخرون من الفلاسفة ، أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، هؤلاء ردّوا على الصنفين الأولين ".

وإذا تتبعنا الغزالي في حكمه على الفلاسفة ، نرى أن المعيار الذي استعمله هو معيار الإيمان ، وحكم من خلاله عليهم ، فالدهريون والطبيعيون زنادقة لمخالفتهم أصول الإيمان ، أمّا الإلهيون وأبرزهم أرسطو، فإن الغزالي يُبدي اهتماماً واضحاً بهم ، وهو اعترف بفضل أرسطو في ترتيب المنطق، وتهذيب العلوم، وتحرير ما لم يكن محّرراً من قبل، وهو ينظر إلى أرسطو ، بأنه استبقى من رذائل الذين أتوا قبله " بقايا " لم يوفق " للنزع عنها " ، وفي هذا الحكم تخفيفي على هذا الفيلسوف الذي يجب تكفيره في مسائل وتبديعه في مسائل أخرى .

لقد بحث الغزالي عن حقيقة الفلاسفة من خلال دراسة الفلسفة إذ يحدث عن نفسه قائلا: **"ثم إني ابتدأت – بعد الفراغ من علم الكلام – بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى**

ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً ، ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك"(٥٤) ،وقد نظر إلى أقسامها فوجدها بالنسبة إلى الغرض الذي يطلبه أو الغاية التي يدرس الفلسفة من اجلها ستة أقسام:" **أن علومهم- بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه- ستة أقسام رياضية،ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية،أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب، والهندسة، وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق منه شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتهم بعد فهمها ومعرفتها"**(٥٥)، وكذلك العلوم المنطقية والطبيعية فلا تتعلق بالدين نفيا وإثباتا .

"وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ، ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر"(٥٦)**. أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وهي : قولهم : أن الأجساد لا تحشر.وقولهم : أن الله تعالى يعلم بالكليات دون الجزئيات.وقولهم : بقدم العالم وأزليته. وأما <u>السياساتيات</u> : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية" ."وأما <u>الخلقية</u>: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية".**(٥٧)، وبهذا الوضوح الذي لا مثيل له كشف الغزالي ما وراء كلمة الفلسفة ، التي كانت لغزا من الألغاز وطلسما من الطلاسم ، لقد امتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده ،

وهؤلاء يدافعون عن الإسلام، وينفون التهم الموجهة إليه، ويحاولون أن يبرروا مواقفه، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته، ولم يجرئ احد من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة وان يغزوها في عقر دارها ، لعدم تعمقهم في الفلسفة وتضلعهم من أصولها وفروعها كالغزالي، الذي هاجم الفلاسفة وتناول فلسفتهم بالفحص والنقد، وهجم عليها هجوما عنيفا مبنيا على الدراسة والتحقيق والتحليل والبحث العلمي، وكانت هذه القدرات نابعة من وعي الغزالي لحجم المعركة التي هيئ وعد لها العدة اللازمة ماديا ومعنويا ، وخطط ووقت لها ، وكانت الخطوة الحاسمة التي اتخذها الغزالي في مواجهة الفلسفة ، هو :ـ تقديم الفلسفة بلغة مبسطة يستطيع أوساط الناس التعامل معها وفهمها .ـ ألف الغزالي كتابه (مقاصد الفلاسفة)، وذكر فيها المصطلحات الفلسفية وبحوث الفلسفة، وعرضها أحسن عرض، الأمر الذي لم يحسنه رجال الفلسفة أنفسهم، وذلك دون أن ينتقدها أو يعلق عليها[٥٨].

وقد برهن الدكتور سليمان دنيا في مقدمته الثانية لكتاب تهافت الفلاسفة على أن عرض الغزالي لمسائل الفلسفة كان أحسن من عرض الفلاسفة أنفسهم لهذه المسائل عندما قارن في بعض المسائل بين أسلوب الغزالي وأسلوب ابن سينا ، وخلص بالقول أن منهج الغزالي أدق وأوضح [٥٩].

ثالثا: الغزالي والصوفية:

عند بحثه في نظرية المعرفة أعجب الغزالي بالطريق الذي سلكه المتصوفة الذي نعتهم بأنهم يمثلون بحق طلاب الحقيقة ثم أعجب بهم ثانية عندما أراد أن يوجد حركة شعبية أو نخبة مؤمنة تساعده على النهوض بالعالم الإسلامي وتحيي فيه الأمل الذي خاب بانفصام الوحدة السياسية التي عمل على إيجادها بين الخلافة العباسية في المشرق والدولة المرابطية في المغرب ، فالصوفية وحدها

حسبما يعتقد تسمح بمعالجة ما رآه من ضعف أصناف الخلق بشرط أن تتخلى عن بعض صفاتها التي تخلى عنها هو[٦٠]، عندما قال: "**فما يعنيك الخلوة والعزلة وقد عم الداء ومرض الأطباء واشرف الخلق على الهلاك**" ، بعد الفراغ من العلوم السابقة، اقبل الغزالي على طريق الصوفية ، فوجد أن طريقتهم تتم بعلم وعمل، وكان العلم أيسر عليه ، فحصّله من مطالعة كتب مشاهيرهم ، كالمكي، والمحاسبي، والجنيد ، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، وظهر له كل ذلك أنه لا يمكن الوصول إلى كنه مقاصدهم إلاّ بالعمل ، أي بالذوق والمشاهدة وتبدل الصفات والأحوال،فالفرق كبير بين أن تكون سكراناً ، وبين أن تعرف حد السكر ، وبين أن تكون شبعاناً ، وبين أن تعرف حد الشبع ، لقد علم يقيناً أنهم أرباب أحوال وليسوا بأصحاب أقوال، والمسألة ليست بهذه السهولة ، فإن الدخول في طريقتهم يقتضي التخلي عن أمور كثيرة ، والتسلح بأمور لا يمكن دخول ذلك الدهليز بدونها ، وكان قد حصل معه إيمان يقيني بالله وباليوم الآخر وبالنبوّة ، وظهر عنده أنه غير طامع بأمور الدنيا ، فما باله لا يُقرَّر ؟.

يصف لنا الغزالي أحواله، فيرى أنها غير نافعة في حق الله تعالى، فهو منغمس في العلائق ، ويصف لنا أعماله وأحسنها التدريس والتعليم، وهو فيها مقبلٌ على علوم غير مهمة ، ومحرّكها وباعثها طلب الجاه وانتشار الصيت، فلم يزل يتفكر في كل ذلك وهو متردد بين رغبات الدنيا ودواعي الآخرة، بين وساوس الشيطان، ومنادي الإيمان، وقد دام الأمر قريباً من ستة أشهر، وفي نهاية المطاف ، التجأ الغزالي إلى الله التجاء المضطر ، فأجابه المجيب إذا دعاه، وسهّل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهر هو أمر الخروج إلى مكة وهو يدبر أمر السفر إلى الشام، وذلك مخافة أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمه البقاء في الشام فيحاولون ثنيه ، وخرج الغزالي من بغداد بعد أن تخلّى عن كل شيء، ثم دخل إلى الشام وأقام فيها قريباً من سنتين

في عزلة وخلوة ، ورياضة ومجاهدة، معتكفاً في مسجد دمشق ، حيث يدخل إلى منارة المسجد ويغلق بابها على نفسه ، ثم رحل بعدها إلى القدس ، إلى المسجد الأقصى، ومن ثمَّ تحركت فيه داعية الحج ، فسار إلى الحجاز .

رغم كل هذه العزلة ، بقيت هواجس الدنيا تُشغِل بال الغزالي، وتشوَّش عليه خلوته. وقد دامٍ الأمر عشر سنين ، انكشف له من خلالها أمور لا تحصى ، فقد علم يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السيَر ، وأن أخلاقهم أزكى الأخلاق، " **بل لو جُمِعَ عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً** "(٦١) إلا أن الكشف الحقيقي والأهم هو ما ظهر له ، من أن طريقة الصوفية لازمة من نور النبوّة ، فجميع ما يقوم به المتصوفون من حركات وسكنات في ظاهرها وباطنها ، " **مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضاء به** " (٦٢).

وهنا نتساءل ماذا تعني لنا سبب عزلة الإمام الغزالي؟ ولعل هذا السؤال سيفتح أمامنا مجموعة من التساؤلات المحيرة لعلنا نختار أهمها وهي:

ـ هل الأفكار والنتائج العلمية التي بلغها وتوصل لها الأمام الغزالي وفق منهجه العلمي وطريقة بحثه وتفكيره أن تحل المشكلة بين الفلاسفة وعلماء الكلام في عصره وبين الفرق الأخرى.

ـ هل كان للمنهج التربوي والروحي الذي توصل له الإمام الغزالي (من خلال تجربته) صدى في قلوب أصحاب المناصب الدينية وزعماء الفرق والمذاهب وعوام الناس. ـ لماذا اختار الإمام الغزالي مذهب الصوفية صاحبا له في عزلته دون المذاهب الأخرى. مهما كانت الإجابة على هذه التساؤلات ؟ فلابد لنا من

القول بأن تجربة الإمام الغزالي التي عاش معاناتها وحمل همومها واكتوى بنارها هو وحده لم يشاركه فيها احد، هي تجربة فريدة تحمل أبعادا ومرامي سامية ورفيعة يصبوا إلى تحقيقها بأسرع وقت ممكن ، ولم يكن يدري أن المهمة ستكون شاقة وصعبة أكثر مما يتصور، على الرغم من اعتقاده بوجود الإمكانيات والأسباب المادية والمعنوية لتعجيل تحقيق ذلك وهو وجود السلطان والخليفة وتوفر الأموال، إلا أن ذلك كله لم يحقق ما يصبو له بالوقت والكيفية التي يريد ، والله يفعل ما يشاء ويريد ، وربما بحث الإمام الغزالي بالأسباب التي أخرت قطاف وجني ثمار جهوده ، فأوعز بذلك أن ما قام به لم يكن لإرضاء الله بقدر ما يكون إرضاء النفس والسلطان وطلب الشهرة والجاه كما يعتقد ، فآثر الاعتزال وحده مصطحبا معه ما يخفف مصابه ويزيل عنه وحشة الغربة ، فأختار التصوف ليعيش معه ويجسد به جمهوريته ومملكته الفاضلة بعد أن أحس بالعجز عن التغيير في بداية تجربته الأولى ، التي سرعان ما انتفض من عزلته وتحرك لديه داعي... فان البيئة بظروفها المقبلة تسمح للشخصية بالنمو والترعرع فتزيدها قوة وجموحا ، أو تصادم مطامح فتخبو أنوار ذكائه وتعصف الأحداث بإمكانياته فتعرضها للاندثار والتلاشي وتتفاعل الظروف البيئية مع أحداث الحياة فتتولد من ذلك التفاعل معالم الشخصية بكل معطياتها .

الخاتمة

يمكن أن نستنتج ما يلي:

- إن حياة الغزالي ابتدأت بروحانية التصوف و"الزهد"، وأخذت تتسرب – روحانية التصوف– إلى نفسه منذ نشأته الأولى في جو أسرته.ومن هنا كانت تجربة الغزالي الصوفية، تتسلل في نسق من تقليدية بيئية أسرية إلى عقلية فلسفية فكرية ومن عقلية فلسفية فكرية إلى أذواق ومكاشفات وصلاح.
- وجد الغزالي في الإسلام منهج البحث المؤدي للحقيقة، وهذا ما ساعده على صياغة نظرياته. وهو بذلك يبحث عن الحقيقة بين المناهج الفلسفية ،والذوق الباطني، والنهج الإسلامي القرآني.
- عانى الغزالي في حقبة من حياته اضطرابا في معرفة الحقيقة وسلامتها، وقد أدان التقليد ،ثم أنهى به الشك والحس والعقل في المعارف التي حصل عليها، لينتهي إلى الكشف الذي قاده إلى مرفأ اليقين.ولم يكن شكه شكا نقديا استمراريا لإثبات الوجود وصدق المعرفة، وإنما كان شكه مؤقتا فاصلا بين عهدين.
- أعطى الغزالي لكل علم مكانته، فهو بذلك كان متوازنا بين مختلف الآراء، كما أن الغزالي كان مفكرا متنوع الجوانب شمل نشاطه حقولا مختلفة من منطق وجدل وفقه وكلام و فلسفة وتصوف.
- . جعل العقل المعتمد الأساس في المعرفة وتأويل العقائد الإسلامية في كل كلية وجزئية بموجبه لم يكن صائبا في كل حين ، لان العقل ليس الطريق المعصوم لمعرفة ما في عالم الغيب ، بدليل اختلاف المدارس الفلسفية فيه.
- . رفض الغزالي تعاطي الفلسفة الميتافيزيقية والمنطق الأرسطوطاليسي على حد سواء ، وإذا اهتم الغزالي بتخليص العقيدة من مجال النظر العقلي الإغريقي ، فليس بسبب الخوف على العقيدة فحسب ، ولا بهدف تحرير

الفلسفة من الارتهان العقائدي، وإنما بسبب تهافت الأساس الذي يقوم عليه النظر اللاهوتي الميتافيزيقي.

---

(١) عبد الأمير الاعسم ، الفيلسوف الغزالي ، دار قباء للطباعة والنشر ، (القاهرة/١٩٩٨م) ، ص٥٦.

(٢) الرها:(مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام). ياقوت الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان ، دار صادر للطباعة ، (بيروت/١٩٥٧)، ٣/١٦.

(٣) أنطاكية:(قصبة العواصم من الثغور الشامية، بينها وبين حلب يوم وليلة).ياقوت،معجم البلدان،١/٢٦٦-٢٦٧.

(٤) محي الدين عزوز، اللامعقول وفلسفة الغزالي، الدار العربية للكتاب (ليبيا/١٩٨٣م) ، ص٧٣ـ٧٤.

(٥) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥ه/١١١٢م)، المنقذ من الضلال ، تحقيق محمد بيجو، ط٢ ، دار التقوى للطباعة والنشر،(دمشق/١٩٩٢م) ، مقدمة المحقق ص٥.

(٦) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥ه/١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار النورية والصلاحية، تحقيق :إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت /٢٠٠٢م)، ١/١٠٠.

(٧) عمر فروخ ، المنهاج الجديد في الفلسفة العربية ، دار ابن الأثير، (الموصل/٢٠٠٦م) ، ص١٩٢.

(٨) الغزالي، المنقذ ، ص٤١.

(٩) محي الدين عزوز ، اللامعقول وفلسفة الغزالي ، ص٦٣.

(١٠) ينظر: د. ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط٣ ، دار القلم للنشر والتوزيع، (دبي/٢٠٠٢م) ، ص١٠٦.

(١١) حنا الفاخوري وخليل الجر ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط٣، دار الجيل (بيروت/١٩٩٣م) ٢/٢٤٤.

(١٢) محي الدين عزوز ، اللامعقول وفلسفة الغزالي ص٨٦.

(١٣) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص٣١.

(١٤) المصدر نفسه ، ص٣٠.

(١٥) محي الدين عزوز ، اللامعقول وفلسفة الغزالي ص٨٦.

(١٦) الغزالي، المنقذ من الضلال ، ص٣٢.

(١٧) أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم(ت٢٥٦ه/٨٧٠م) ، التاريخ الكبير ، راجعه: السيد هاشم الندوي، دار الفكر ، (بيروت/١٩٨٦م) ، ١/٧٧ برقم(٤٣٢).

(١٨) عبد الجليل بن عبد الكريم، التأويل عند الغزالي، مكتبة الثقافة الدينية،(القاهرة/٢٠٠٤)، ص٢٩٨.

(١٩) د. سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، دار المعارف (القاهرة / ١٩٦٥م) ص٣٧.

(٢٠) سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ص٢٦.

(٢١) المرجع نفسه، ص٢٦.

(٢٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ١٥.

(٢٣) المرجع السابق، ص٢٧.
(٢٤) المرجع نفسه ، ص٢٧.
(٢٥) الغزالي، المنقذ، ص٣٤.
(٢٦) سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ص٢٨.
(٢٧) أبو بكر عبد الرزاق، مع الغزالي في منقذه من الضلال، ط٢، الدار القومية للنشر والطباعة،(القاهرة/ د.ت)، ص٩٠.
(٢٨) د. عماد الدين الجبوري ، الحقيقة عند الغزالي ـ الشك أول الطريق ـ مجلة العرب الأسبوعي ـ الشهر الخامس / ٢٠٠٨م، ص٢٨.
(٢٩) ديكارت رنيه "١٥٩٦-١٦٥٠م"، وُلِدَ في لاهاى بفرنسا، تلّقى تعليمه في كلية "لافليش" اليسوعية، له عدد من المؤلفات في الفلسفة، ومن أشهر مؤلفاته: "مقال في المنهج". ينظر ترجمته: روني الفا، موسوعة أعلام الفلسفة ، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت/١٩٩٢م) ، ص٤٥١-٤٥٢ ؛ يقول ديكارت في الشك: "إذاً ليس الشك مقصوداً هنا لنفسه، بل لامتحان معارفنا وقوانا العارفة، إذاً فأنا أشك في الحواس لأنها خدعتني أحياناً ولعلها تخدعني دائماً، وأنا أشك في استدلال العقل، لأنَّ الناس يخطئون في استدلالهم فمنهم من يخطئ في أبسط موضوعات الهندسة" ، فالشك عند ديكارت ليس مطلوب لذاته ولكنه مطلوباً لليقين، فشكَّ في الحواس وشكّ في العقل، أليس هذا هو ذات الشك عند الغزالي؟! وديكارت جاء بعده بقرون ألم يكن ما كتبه ديكارت تقليد للغزالي؟؛ ما كتبه ديكارت "مقال عن المنهج" و"التأمُّلات"، حيث التشابه الشديد بينهما وبين ما قدَّم الغزالي في "المنقذ من الضلال" يؤكد دون أدنى شك تأثر الفيلسوف الفرنسي بفيلسوفنا وأخذه عنه يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط٤، دار المعارف،(مصر/١٩٦٦م)، ص٦٦. مصطفى النشار ، فلاسفة أيقظوا العالم ، الثقافة والنشر،(القاهرة/ ١٩٨٨م) ،ص١٦١.
(٣٠) سورة الأنعام : ١٢٥.
(٣١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ٣٦.
(٣٢) د. محسن عبد الحميد، الفكر الإسلامي (تقويمه وتجديده)، ط١، مكتبة الخلود (بغداد/١٩٨٧م)، ص٩.
(٣٣) الغزالي. المنقذ ، ص٦٦ -٦٧.
(٣٤) د. رحمة عثمان محمد ، منهج الغزالي في العلم والمعرفة ، مقالة نشرت في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد السادس ، ٢٠٠٥م ، ص٩ .
(٣٥) أبو الحسن الندوي ، رجال الفكر والدعوة ، دار القلم ، (الكويت/د.ت)، ص٢١٧.
(٣٦) الغزالي، المنقذ من الضلال ، ص٣٢.
(٣٧) سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ص٢٩ـ٣٠ ، ص٣٤ ؛ و ينظر : د.حسام الدين الألوسي ، دراسات في الفكر الإسلامي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد/ ١٩٩٢م) ، ص٢٧٢.
(٣٨) الغزالي ، المستصفى، دار الفكر للطباعة والنشر،(بيروت/ د. ت) ص ٢٤-٢٦.

(٣٩) عبد الله حسن زروق، ، نظرية المعرفة عند الغزالي، بيروت، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٤٨، ١٩٨٧م، ص ٢٩.
(٤٠) أبو حامد الغزالي: الرسالة اللدُنية، شركة الطباعة الفنية، (د. م/ د.ت) ، ص ٩٨.
(٤١) الغزالي ، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف (مصر/ د.ت) مقدمة المحقق ، ص ٢٤.
(٤٢) سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ص ٣٢.
(٤٣) المرجع نفسه ، ص ٣٣.
(٤٤) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص٣٩.
(٤٥) المصدر نفسه ، ص٣٩.
(٤٦) المصدر نفسه ، ص٤٠.
(٤٧) الغزالي، محك النظر في المنطق ، ص٥٧.
(٤٨) الغزالي، القسطاس المستقيم ، تحقيق فيكتور شحلت اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت/ ١٩٥٩م)، ص٩٩.
(٤٩) عمر فروخ ، المنهاج الجديد ، ص١٨٠.
(٥٠) سعيد عبد اللطيف فودة ، موقف الإمام الغزالي من علم الكلام ، ط١ ، دار الفتح للدراسات والنشر ، (عمان/٢٠٠٩م)، ص ١٦٨-١٦٩.
(٥١) سليمان دنيا ، الحقيقة، ص٣٤.
(٥٢) نور الدين السافي ، نقد العقل (منزلة العقل النظري من العقل العملي في فلسفة الغزالي)، ط ١، مكتبة علاء الدين (تونس/ ٢٠٠٣م) ص٤٢.
(٥٣) الغزالي، المنقذ من الضلال ، ص٤٩.
(٥٤) الغزالي، المنقذ من الضلال ، ص٤٩.
(٥٥) المصدر نفسه ، ص٤٦.
(٥٦) المصدر نفسه ، ص٤٩.
(٥٧) المصدر نفسه ، ص٥١.
(٥٨) صالح احمد الشامي ، الإمام الغزالي (حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة)، ط١، دار القلم (دمشق/ ١٩٩٣م) ، **ص٧٨-٨٠**.
(٥٩) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، ط٨، دار المعارف ، (القاهرة/د.ت)، **ص٢٣ ، ٢٩**.
(٦٠) محي الدين عزوز ، اللامعقول ، ص١٥٠..
(٦١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، سص٦٩.
(٦٢) المصدر نفسه ، ص٦٩.